المحيّرة ـ التي يُصرّ على ذكرها روائيون خلف أذهانهم من المنطق الناقد ـ تأمل كيف بُنيت الوقائع الشاذة لقصة (اوليفر تويست) ذلك المتشرد الذي تتصارع كل الاحداث كي تعيده لعائلته ..

هراء لا نستطيع تلمسه في حياتنا الترابية .. لانعدام طابع الصدق المفتقد في معظم الاعمال الكلاسيكية .. فليس واقع الحياة ان نجد دائماً آباء مختفين او أشقاء ضائعين ..

ان القصة الحديثة تمتاز بأنها مستوجبة للتبادل : بمعنى أننا لو وضعنافرداً آخر بدل Striekland في « القمر وستة بنسات » لموم .. لما اختلفت الوقائع ..

انها جُهد الانسان العادي بلا امتياز ولابطولات خارقة. وكذلك فإن الرواية الجديدة لا تسهم في وضع المنفرات الهروبية غير الانسانية كأحكام نهائية على البشر والتي تطالعنا في (فرتر) الالهي .. على أننا لا نجده أبداً في حياتنا العادية.

انه انسان قديم (ربّ مجنح) .. لا يمتّ لعالمنا بصلة .. انه لا يعرف الطعم الحريف لحياتنا ولا يستطيع تذوق متعتنا الرخيصة لانه ليس منا ، ولانه ليس منا فهو يجذف عبر ضلالات عجيبة ، وردية حيناوزرقاءأحياناأخرى.. ليشعرنا ـ لا بالصدق الذي نحتاجه ـ ولكن بلون آخر سامق لا تطاله مشاعرنا التي تعي النتن وتستطيل فيه ؛ ولذلك فإننا نصدق (إريك ماريا ريمارك) في رائعته « كل شيء هادىء في الميدان الغربي » لانه يمزجنا بالدم والوحل وقبل كل شيء ـ بالانسانية التي يرتد عنها كل أثر كلاسيكي ..

وحتى (مالرو) .. فإنه في (الصراع مع الملك La Lutte Avec L'ange) يحاول بجاذبيته المعهودة إشعارنا بدفقة الحياة خلال احداثها البسيطة .

« ثم مَرّ قط مروراً مفاجئا ناعماً .. فاذا بي أشعر بالدهشة لوجود هذا الحيوان !! ».فمن خلال هذه الاكتشافات البديعة لنهج الحياة ولدفقاتها المدرارة .. يُجَسّدُ هؤلاء الروائيون شعورنا بالاشياء العادية التي تمر خاطفة فيسجلها شعور طاغ بالملاحظة..فالرواية تنهج نهجاً مركزاً في تقرير الرماديةالسائدة بإدراك صاف ، وصدق حقيقي وهما كل ما نحتاجه من الفن . فما هو الاثر الذي يتركه فينا منظر حذاء جميل في قدم شحاذ!! إننا نضحك إذ نجد مثل هذا الرسم .. إنه يختال بعيداً عن المنطق الحقيقي فيصيبنا بالحيرة ..

وحتى في معظم الافلام السينمائية ـ ما خلا الايطالية منها ـ نجد الروح القديمة سارية في القصص كما كانت أيام (ثاكري . أوستن . برونتي) .. سيرة واحدة بملاحظات تمسّ هدف الرواية الاصلي .. بكل المساعدة الممكنة التي يتقدم بها الـ Background المخلص لفكرة القصة ..

أما في « Sensualita » ـ وهو فيلم إيطالي ـ فإننا نجد البطل ينتظر امرأة في ردهة ، فيأتيه طفل تتدلى نصف سيجارة من فمه ، ثم يشده من ردائه ويسأله : « أتملك عود ثقاب ؟! » . فهذه الواقعة خارجة على الفيلم ، ولكنها تمثل الحيدة الحقيقية التي يقفها العالم الخارجي منا ..

لا نستطيع ان نضع للحياة قانوناً ما ، فليست شيئاً يمكننا حشره في جرة لنحمله معنا . لكل منا حياته الخاصة بذكرياته وآماله ومشاهداته .. أنستطيع أن نجعل من كل هذا الخليط المتضارب « كوميديا » مثلاً ؟؟

لنفرض أننا علقنا (سقراط)(١) في سلة لنجعل من حياته مهزلة تُمثل .. فهل يمكننا منع روح الاسى التي يستشعرها الفيلسوف من الظهور .؟ ولكن قانون الكوميديا يمنع الجانب البائس في الفيلسوف من ان يطفو .. فنظل نحن نقهقه ـ بحمق ونزق ـ وبلا أدنى ظاهرة بالفهم ـ نقهقه حتى ختام التمثيلية .

اننا لم ندرك انها لم تكن حياة تلك التي شاهدناها. لم تكن حياة . ولم تكن حقيقة .. كانت نسخة حمقاء من محاولة مبتذلة لتقليد الحياة ..

نستطيع إذن ان نقول بأن جُهد الرواية العادية يخص في استطاعتنا تبادل أشخاص القصة بآخرين احياء ، وإظهار الرمادية المعاشة والصدق الحقيقي النابع من الغور العام للحياة البشرية المتجددة . والذي يسخر من تقنين الملهاة والمأساة لحياتنا مع عرض الـ Background المحايد الذي لا يدلي برأيه في المشكلة الحادثة ، بل يبقى بعيداً معبراً عن الحياة القديمة التي تجري احداثها في هدوء وسكون ، وهذاهو ما يدفعه في الوعي أدب روائيين كشتاينبك وجويس ومالرو وكامو ..

أدب حقيقي يلمس بصدق صاف دفعة إثر دفعة من حياتنا المعاشة بلا تزييف ولا اختلاق اقداراً خاصة لاهداف خاصة.. ان الرواية الحديثة جُهد صادق ينفعل بالجهد البشري العادي المنغمس في حمأة الارض والوحل والطين !!

القاهرة — **محي الدين محمد**

(١) مسرحية (السحاب) لأريستوفان ، سخر فيها من سقراط .